الفينومينولوجي (إدموند هوسرل 1859_1938)

تمهيد:

إن الفينومينولوجيا كاتجاه فلسفي ظهر في القرن العشرين، والسؤال ما الفينومينولوجيا؟ قبل عام 1945 وبعده لازال يكتنفه الغموض، السبب في ذلك يعود إلى أن كل فيلسوف يقدم موقف معين حول هذا السؤال، وهذا السؤال ليس مشروعا كبقية المشاريع التي ليس لها حدود، وإنما ذلك غموضه يعكس أيضا طبيعة الفينومينولوجيا نفسها. من حيث أنها ليس صياغة جاهزة بقدر ماهي منهج مفتوح تقاسمه العديد من الفلاسفة المعاصرين كما أنه قابل للتعديل والتطور في كل مرحلة معينة، لذلك جل الفلاسفة الفينومينولوجين حاولوا تعاملوا مع سؤال ما الفينومينولوجيا كل حسب طريقته الخاصة، والحقيقة أن الفينومينولوجيا ليست فلسفة أو مذهب معين بل هي منهج وليد أزمة وهذا بطبيعة الحال منذ الفترة التي ظهر فيها فيلسوف من كبار الفلاسفة الألمان هوسرل، وأغلب الدراسات بينت أنه المنظر الأول للمنهج الفينومينولوجي وكل المحاولات الفينومينولوجيا التي جاءت بعده هي مجرد تطبيقات لهذا المنهج وتعني بذلك أي الفينومينولوجيا تلك المنهجية الجديد التي ستؤدي دورا مهما في القرن العشرين، ولعلها أهم منهجية استجابت لزمانها أسسها بداية هوسرل الفيلسوف الألماني الذي درس الرياضيات وهو يهودي معتنق للمسيحية كان مضطهدا من طرف النازيين، كان محاضرا في جامعة فرايبورغ حتى سن التقاعد أي حتى سن 69، ومن بين المؤلفات التي قدمها في هذا المجال: الفلسفة كعلم دقيق 1911، أفكار من أجل فينومينولوجية محضة وفلسفة فينومينولوجية 1913، الفلسفة الأولى 1924، تأملات ديكارتية 1931، محاضرات ألقيت في جامعة السوربون، أزمة العلوم الأوربية فيه بحث هوسرل عن الأزمة التي مرت بها الإنسانية الأوربية.

1_ الفينومينولوجيا بحث في الماهيات لا الوقائع (نقد العلم):

إن الفينومينولوجيا تريد البدء حيث انتهى العلم، وكذلك النتائج التي حققها من زاوية أنه كان ينظر إلى كل الأشياء ويفسرها على أنها وقائع جاهزة، وبديهيات تبدوا أكثر وضوحا، وانطلاقا منها يمكن تأسيس حقائق ومعارف، إنها تريد أن تجعل لنفسها قاعدة محتوها يجب البدء بالخبرة المباشرة بالعالم والأشياء أي البدء من ماهية شيء أو موضوع ما كما يبدوا في خبرتي وليس مستقل عني، هذا ما لم ينتبه إليه العلم منذ تاريخه إن يتجاهل الموضوع ودلالته، مثل الإنسان الذي افتقد دلالته الإنسانية، هذه هي الأزمة التي انبثق منها هذا المنهج هي أزمة الإنسان الأوروبي الذي يفكر في الأبعاد المادية متناسيا بذلك الأبعاد الروحية التي لها دلالة في الحياة وهي التي تعبر عن معنى الحياة فغذا رأينا علم يشخص أمراض الجسد فإننا في

مقابل ذلك لا يوجد من يشخص روح هذا الجسد أو البدن، هذا يدل على أن العلم في قصور وليس مكتفيا بذاته كعلم، فإذن الفينومينولوجيا كما بينها هوسرل تريد أن تكون علما بالماهيات، وعلما كليا يستطيع أن يقدم الأساس لكل العلوم الأخرى أي تحلل كل ماهيات الموضوعات والأشياء التي كان قد جعلها العلم وقائع جاهزة مثل الجسم، الأنا، الموضوع المادي (توفيق، 2016، صفحة 28).

عندما نقول نقد العلم ليس فقط العلوم الطبيعية بل حتى علم الرياضيات، لأن الرياضيات في نظر هوسرل وغن كانت تقدم مفاهيم وتعريفات صورية مجردة، لكنها ليست كافية لكي تساعد في بناء منهج يدعى الفينومينولوجيا لأن هذه الأخيرة هي بحث في الماهيات العيانية الخالصة، مستمدة من الحدس الذي هو معرفة مباشرة ولا تتدخل في ذلك العمليات الاستدلالية، أيضا نقد هوسرل يصل حتى العلوم الإنسانية في قضية العودة إلى الماهيات وليس الوقائع، وأزمة العلم بدت أكثر عمقا عندما حاولت العلوم الإنسانية والاجتماعية تطبيق منهج العلوم الطبيعية، ومن ثم تحولت هي الأخرى إلى علوم للوقائع وجعلت الإنسان واقعة ضمن هذه الوقائع، وأصبح مستقلا عن خبراته ويقدم لنا هوسرل مثال على علم النفس التجريبي، هنا يظهر انتقاد هوسرل بشدة للنزعة psychologisme التي مرتبطة ارتباطا وثيقا بالتجريبية هذه النزعة أرادت أن تجعل كل عمليات المعرفة والوعي هي عمليات سيكولوجية مستمدة من الوقائع التجريبية ومرتبطة بها عليا (توفيق، 2016، صفحة 29). ولهذا علم النفس من منظور هوسرل ينبغي أن يكون علما فينومينولوجيا ماهويا.

علم النفس الفينومينولوجي ضروري لفهم الفينومينولوجيا الفلسفية، من خلاله نستطيع أن نحول إدراكنا من إدراك لوقائع وأشياء إلى تأمل خبراتنا بالأشياء أو الوقائع، أي التحول من حالة الإدراك الحسي إلى تأمل خبرة الإدراك الحسي نفسها.

إن الفلسفة منذ بداياتها الأولى تدعي أنها علم صارم ولكن في مقابل ذلك يرى هوسرل أن الفلسفة اليوم لم تكن صادقة في هذا الادعاء في كل مراحلها التي مرت بها لكن السؤال المطروح إذا كان العلم ينطوي على قصور وأن الفلسفة تخلوا من الطابع العلمي كيف يمكن له أن يجعل الفلسفة علما صارما أو دقيقا إن صح هذا التعبير؟

إن بداية هوسرل عندما انتقد العلم والفلسفة ليس الهدف من ذلك استبدال علم بعلم أو فلسفة بفلسفة وإنما يريد تقويض البناء القديم للعلم والفلسفة واستبداله بالبناء الجديد، وهذا البناء الجديد يستدعي الحفر والتنقيب فيما هو قديم بغية الوصول إلى الهدف، يرى هوسرل البداية لا يمكن أن تكون إلا بالعودة إلى الأشياء، الظواهر نفسها، لأن الفينومينولوجيا قبل أن تكون منهج يكتشف لنا الماهيات العيانية كان منهجا

للأشياء والظواهر، وتلك الماهيات تأتي بهذه الأشياء والظواهر، من هنا تبين أن الفينومينولوجيا هي البحث في ماهية الظواهر والأشياء ذاتها zu den sachen selbst.

إن الظواهر والأشياء التي يتحدث عنا هوسرل كموضوع للفينومينولوجيا ليست هي الظواهر التي تكلم عنها كانط أو هيجل، كانط وضع عالم الظواهر في مقابل عالم الأشياء، هذا غير مقبول في نظر هوسرل لأن كانط يقر بأنه نعرف فقط عالم الظواهر أما عالم الأشياء فلا يمكن، بالنسبة لهيغل ينظر إلى الظواهر على أساس أنها تجليات عليا للروح أو المطلق في لحظاته الزمنية، إن الفينومينولوجيا تبدأ أساسا من الأشياء في ذاتها إذن رفض هوسرل الثنائية الكانطية المتأصلة، والبنائية الهيغلية يتفق هوسرل معهم في أن الظواهر هي المعطى ولكن لا ننسى بأنها تقدم لنا ماهية ما يمكن أن يكون هو المعطى.

من هنا تتجلى ماهية الظواهر في الظواهر نفسها الظواهر ليست مجرد مظاهر بل تنطوي على معنى يوجد في باطنها واكتشاف ماهية الظواهر هذه يكون بفعل التأمل الانعكاسي الذي ذكرناه في علم النفس الفينومينولوجي عند هوسرل سابقا أي التأمل في خبراتنا المتجهة نحو هذه الظواهر كخبرات معيشية وفي هذه الفكرة ينتقد تجريبية هيوم الظواهر لا كشف فقط عما هو حسي بل تكشف عما هو معنى وماهية ودلالة بالنسبة لنا (توفيق، 2016، صفحة 32).

يلتمس هوسرل هنا معنى الصرامة في العلم ليس في شيء أخر من جوانبه وإنما فقط في ماهيته المحكمة أي العلم نسق من المعرفة محكم البنيان، نسقي الفلسفة هي منهجية نسقية صارمة وليست انساقا مذهبية.

2_ الفينومينولوجيا بما هي منهج لمعرفة علاقة الوعي بالعالم المحيط بنا:

إن الفينومينولوجيا بما هي منهج ودراسة علمية ووصفية للأشياء والظواهر تسعى إلى الإجابة عن سؤال رئيسي وهو ما علاقة الوعي بالعالم؟ وكذلك السؤال كيف يتسنى لنا فهم الموضوع كما يبدوا لنا في الخبرة المباشرة؟

نحن نعلم أن الفينومينولوجيا مسارها كمنهج بدأت بظهور البحوث المنطقية سنة 1901 في هذه الفترة بدت كعلم ما هوي وصفي خالص وظهرت بعد ذلك مفاهيم الرد الماهوي، القصدية، هذه كلها أدوات ساعدت الفينومينولوجيا في بناء منهجية وصفية فريدة تتجاوز كل مثالية وواقعية كانت سائدة ومنذ ظوهر كتاب أفكار نحو فينومينولوجيا خالصة وفلسفة فينومينولوجيا 1913، بدأ تطور الفينومينولوجيا وظهرت ملامح هذا المنهج واتضحت فيما بعد الخطوات الرئيسية المعتمدة فيه منها:

أ_ الإيبوخي:

هذه خطوة مهمة في المسار الفينومينولوجي قبل تبيان ماهية الظواهر المتعلقة بالأشياء علينا أن نمارس عملية الاختزال وقبل هوسرل تعني عند ديكارت بالشك المنهجي يعني أحاول وضع العالم الموضوعي بين قوسين وأستبعده كلية وما يبقى امامي هو الظاهرة لوحدها، لا كشيء أو موضوع معين بل هي كمعطى ووحدة ذات معنى، هنا تبدأ عملية الوصف لهذه الظاهرة التي نزعنا عنها كل ما هو موضوعي كل ما هو أت من العالم الخارجي وتبقى ظاهرة نفسية شعورية ووصف الظاهرة هنا ينقسم إلى قسمين هما:

_ وصف النويز noèse: أي محاولة التوصل إلى وصف الهدف الذاتي للظاهرة أي القصد من هذه الظاهرة وإظهار فعل التفكير الحقيقي.

_ وصف noème: أي الموضوع المعني في التجربة والموضوع الذي يستهدفه الفكر وإظهار النية الذاتية وهذا ما يعرف بالتجربة الداخلية التي لا يشوبها أي عنصر موضوعي.

ب_ القصدية intentionnalité: إن هوسرل في تحليله للوعي بين أن القصدية خاصية مميزة للخبرة والقصدية هي التي تميز الوعي لأن تيار الخبرة هو تيار الوعي، ولا يمكن فهم الوعي دون فهمنا للقصدية ويبين هوسرل أن القصدية هي تلك الخصوصية الفريدة للخبرة بوصفها بوصفها وعيا بشيء ما إن الإدراك هو إدراك لشيء ما، الحكم هو الحكم على قضية معينة، الشعور هو شعور بشيء ما الخبرات هي ظواهر خاصيتها أنها تكون ظهورا ووعيا. كل وعي هو وعي بشيء ما وهذه الفكرة أخذها هوسرل من أستاذه "**فرانز برينتانو**" أكد أن القصدية هي الخاصية للميزة للخبرات والظواهر النفسية، حيث ترتبط كل ظاهرة بموضوعها ارتباطا تلازميا وهذا ما يعتبر عند هوسرل اكتشافا عظيما (توفيق، 2016، صفحة 37).

كل شعور هو شعور بشيء ما أراد هوسرل أن يقدم صياغة جديدة لنظرية المعرفة تتجاوز ذلك التعارض الموجود بين ثنائية الذات الموضوع أيام الواقعية والمثالية، وهي محاول لإعادة تأسيس اتصالنا بالعالم الخارجي وكل شعور هو شعور بشيء ما يعني ذلك أنا موضوعات العالم الخارجي ليست منفصلة عن الذات الواعية، والعالم لا يمكن أن يتحرك وهو منفصل عن الوعي، والكوجيتو أو فعل التفكير هو مرتبط بموضوع التفكير وهذا ما يعرف عند هوسرل بالكوجيتاتوم cogitatum الوعي يكون دائما متجها نحو موضوعه من خلال ذلك القصد يعني توجه الوعي نحو موضوعه. أي يمارس الوعي أفعالا اتجاه موضوعه وليس كل الأفعال أفعال الوعي وخبرات مثلا رحيق الزهور ليس فعل من أفعال الوعي وليس خبرة قصدية.

ج_ الرد الماهوي:

الرد الماهوي عند إدموند هوسرل يعبر عن مفهوم الوجود البشري والتجربة الحية بطريقة معقدة وفلسفية. يؤمن هوسرل بأن الإنسان يجب أن يجد معنى لحياته من خلال التزامه بالعالم وبالآخرين. يركز على فكرة "الوجود قبل الجوهر"، حيث يعتقد أن الإنسان لا يولد بطريقة محددة بل يختبر الحياة ويبحث عن هويته ومعنى وجوده خلال تفاعله مع العالم والآخرين.

بالنسبة لهوسرل، الوجود البشري يتميز بالقدرة على التحول والتطور، وهو متأثر بالظروف الاجتماعية والثقافية والتاريخية التي يعيش فيها الفرد. يرى أن الإنسان يجب أن يواجه التحديات والمعاناة ويبحث عن معنى حياته من خلال التفاعل مع العالم وتجاربه الشخصية.

بشكل عام، يعبر الرد الماهوي عند هوسرل عن رؤية عميقة للوجود البشري تركز على التجربة الحية والتطور الشخصي، وكيفية تفاعل الفرد مع العالم من حوله لاكتساب معنى وغاية لحياته.

الفينومينولوجيا هي علم يدرس الظواهر كما تظهر للوعي، دون أي افتراضات مسبقة أو تقديرات. يعتبر هوسرل أن العالم الخارجي لا يمكن الوصول إليه مباشرة، بل يتم التوسط في تلك التجارب عبر الوعي.

في رؤية هوسرل، الفينومينولوجيا تهتم بالظواهر الواضحة للوعي والتي تظهر للفرد كما هي، مثل الألوان والأشكال والأصوات والأفكار. يركز هوسرل على استكشاف كيف يتشكل معنى هذه الظواهر وكيف يفهم الفرد العالم من حوله من خلالها.

باعتبارها منهجًا فلسفيًا، تسعى الفينومينولوجيا عند هوسرل لفهم أعمق للوعي وتجاربه وتأثيرها على تشكيل الواقع. يعتبر هوسرل أن الفهم الصحيح للعالم يبدأ بفهم تجاربنا الشخصية وكيفية تأثيرها على ادراكنا للحقيقة.

لذا، يمكن اعتبار الفينومينولوجيا عند هوسرل كأداة لاستكشاف الوعي والتجارب الشخصية، والتي تساعدنا في فهم العالم بطريقة أعمق وأكثر تميزًا.

خاتمة:

في نهاية المطاف، تعكس الفلسفة الفينومينولوجية لإدموند هوسرل رؤية مميزة للعالم والوعي البشري. من خلال التركيز على الظواهر كما تظهر للوعي، نتحول إلى العمق الحقيقي لتجاربنا وتفاعلاتنا مع الواقع.

يشدد هوسرل على أهمية فهم كيفية تأثير تجاربنا الشخصية على إدراكنا للحقيقة والواقع. بالتركيز على الظواهر الظاهرة، نكتشف الطريقة التي يشكل بها الوعي البشري العالم ويعطي له معنى.

تعتبر الفينومينولوجيا عند هوسرل منهجًا يتيح لنا الفهم الأعمق لتجاربنا الحية والعالم من حولنا. من خلالها، ندرك أن الوعي هو البوابة إلى الواقع، ومن خلال استكشافه بعمق، نفتح أبوابًا جديدة للفهم والتعايش البنّاء مع الواقع.

في النهاية، الفلسفة الفينومينولوجية هوسرل محتواها هو أن الوعي هو القوة التي تشكل وتحدد تجاربنا وفهمنا للعالم. ومن خلال الاستمرار في استكشاف هذا الوعي بتواضع وفضول، نستمر في التطور والتغيير، ونبني علاقات أكثر تفهمًا وتقبلًا مع الواقع ومع بعضنا البعض.